﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ ٤٧﴾ [النمل: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّهم الغليظُ على لومِه لهم بالاستعجالِ، وتحضيضِه إياهم بالاستغفار والتوبة

قولهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ هو جزءٌ من محاورتهم ومخاصمتهم نبيَّهم صالحًا ﷺ، أظهروا به مدى ملَلِهم من كلامه وتشاؤمهم منه، وأبرزَ أسلوبهم العنيف أثناء الخصومة والجدل واللّدد، فهو ردٌّ على قوله لهم: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾: (طير) أصلُ الطّيَرَةِ من الطَّيرِ، وهو الحيوانُ الطّائر كالغراب ونحوه، والطّيَرةُ: التَّشاؤم، يُقالُ: تطيَّر بالشَّيء، يَتطيَّر، تطيُّرًا وطَيَرة، أي: تشاءمَ به. والتَّطايُرُ: التَّفرُّق والذَّهاب؛ ومنه سُمّي التَّشاؤم طَيَرةً؛ لأنَّ أغلبَ اعتمادهم كان من جهة الطُّيور وأفعالها[1]. ومعنى ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ هنا: تشاءَمنا، وأصلُه: تطيَّرنا، قُلبت التّاءُ طاءً وأُدغمت في الطّاء، ثمَّ اجتُلبت همزةُ الوصل للتَّوصُّل بها للنُّطق بالسّاكن[2].

2) ﴿تُفۡتَنُونَ﴾: (فتن) أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ[3]. وأَصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[4]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أَحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: بالفَتّان،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طير).
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 7/ 1688.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(4) الخليل، العين: (فتن).

وكَذَلِكَ الشَّيْطانُ[1]. والفِتنَةُ: الكُفر[2]، والعَذابُ، والبَلاءُ، والابتلاء[3]، والاختبار[4]، وما يَقَعُ بَيْنَ النّاسِ من الحُروبِ[5]. والمُرادُ بالفِتنةِ في الآية: الاختبارُ والامتحان، أي: تُختبرونَ وتُمتحَنون بما يقعُ عليكم من شرٍّ، حتى تتوبوا إلى خالقِكم، قبل أنْ ينزل بكم العذابُ الماحق، إذا ما بقيتم على كفركم[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المكذِّبون للرُّسُلِ يَسلُكونَ مَسالِكَ التَّشبيهِ والتَّمويهِ، والرَّدُّ عليهم مِن جنسِ الإيرادِ

قال مُشرِكو ثمودَ لنبيِّهم صالحٍ: تشاءَمْنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ؛ فنحن تُصيبُنا المصائبُ والمكارِهُ بسَبَبِكم، فقال صالحٌ لِقَومِه: ما يُصيبُكم مِن مكروهٍ فإنَّما جاءَكم مِن عندِ اللهِ وحْدَه، ووقَعَ عليكم بإذنِه؛ بسَبَبِ ذُنوبِكم، بل أنتم قَومٌ يَختبِرُكم ربُّكم بالسَّرّاءِ والضَّرّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ[7]، فإنْ رَضيتم وصَبَرتُم نِلتُم الثوابَ والإحسان، وإنْ أنتم جَزِعتُم وكفرْتُم أصابَكم العذابُ والهوان.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

التشاؤُمُ من الأنبياء والمرسَلين سبيلُ الخسرانِ المبين

فُصلتِ الآية عمّا قبلها على الاستئناف البيانيِّ، لكونها جزءًا من المحاورةِ القائمة بينهم وبين نبيِّهم صالح ﷺ، فكأنَّه قيل: فماذا قالوا لنبيِّهم بعدَ أنْ قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾؛ فبينهما: شبه كمال اتصال، الذي كشفَ عن طبيعة ما يدورُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتن).
(2) ابن سيده، المحكم: (فتن).
(3) الخليل، العين: (فتن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (فتن).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فتن).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 337.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 87، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 198، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 606.

بين الفريقين اللّذين يتخاصمانِ؛ فريقٌ يدافعُ عن الحقِّ وفريقٌ يدافعُ عن الباطل.

دلالة التعبير بالضّمير عن ثمود في قوله: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

اختلافُ القولين دليلٌ على تمايز الفريقين

عبَّر عن (ثمودَ) بالضَّمير دونِ ذكرِ الاسم الصَّريح لكونه معلومًا، وإنما كان الضميرُ جمعًا لَفْتًا إلى اجتماعِهم على هذا القول وطريقته الفظَّة واتفاقِهم عليه، لكونه منسجمًا معَ سوء طبْعِهم الجَمْعيِّ. واختلفَ قولُهم عن قولِه ﷺ سابقًا؛ فقد جاء قولُه مسندًا إلى ضمير الواحد ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ ممّا يدل على وحدةِ القائل وعدمِ تشتُّتِ الرأي في فريق الإيمان، وأنَّ المخوَّل بالكلام والمخاصمة عن فريق الإيمان هو نبيُّهم دون مَن سواه، وناداهم بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾، في حين تركوا نداءَه فَظاظَةً منهم، ولكونه منتبهًا إلى أقوالِهم الخاطئة فلا يحتاجُ إلى تنبيهٍ وإيقاظٍ، وأسندَ القول إلى جميعهم للدلالة على أنَّ المتحدِّث عن فريق الكفر متعدّدٌ ممّا يعطي جَوًّا من الخصومة، التي تسودُها الفَوْضى أثناءَ الحوار من طرفِهم.

دلالة التعبير بقوله: ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ عن التشاؤم:

عقولُ الكافرين محلُّ الخرافة وأوهامِ الواهمين

عُبِّر بالتطيُّر عن التشاؤم؛ لأن التشاؤم مسبَّبٌ عن التطيّر؛ لما أنَّهم كانوا إذا خرجوا مسافرينَ فيمرّون بطائرٍ يزجرونَه ويطيّرونه، فإن مرَّ بهم سانحًا تيمَّنوا، وإن مرَّ بارحًا تشاءموا، فلمّا نسبوا الخيرَ والشرَّ إلى حركة مرورِ الطّائر وما يفعلونَه به من زجرٍ وتطييرٍ، اشْتَقّوا منه فِعلًا عبّروا به عن التشاؤم إطلاقًا للسّبب على المُسبَّب.

دلالة نسبة قوم ثمود الطّيَرة إلى نبيِّهم:

التطيُّرُ من دعوة الصّالحين مجلبةٌ للضَّرر المبين

ما وقعوا فيه من نسبةِ الطّيَرة وهي التشاؤمُ إلى صالح ﷺ ومن اتَّبعه، هو لونٌ من ألوان الشِّرك الذي يُضاف إلى كفرهم، لأنَّ خلقَ كلّ شيءٍ إنّما هو من الله تعالى وهو النافع والضارّ وحدَه، كما قال سبحانه في معالجة هذه المسألةِ لمّا وقع المشركونَ فيها فاتّهموا بها

نبيّنا محمدًا ﷺ، بما اتّهمتْ به ثمودُ نبيَّها صالحًا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: 78]، وبذلك ردَّ عليهم صالحٌ عليه السلام قائلًا لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: طائِرُكُمْ على زعمِكم وتسميتِكم وهو حظُّكم في الحقيقة من تعذيبٍ أوْ إعفاءٍ؛ هو عِنْدَ الله وبقضائه وقدره[1].

دلالةُ الباء في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾:

(الباء) في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾ للسببيَّة، والمعنى: إنَّما أصابَنا الضرُّ بسببِك وبسببِ أتباعِك الذينَ أطاعوك، وتركوا دينَ آبائهم، وتأشيرُهم للسّبب في حدوث الشّرور النازلةِ بهم تناسٍ وتغافلٍ عن اختبار الله تعالى لهم، الّذي يُصيبهم بالآفات نتيجةَ عدمِ اتّباعهم نبيَّه صالحًا عليه السلام، وبدلًا من أنْ يفهموا الرّسالةَ الموجَّهة إليه بالتوبة والرّجوع عن إيذاء صالحٍ وأتباعِه، إلا أنّهم نسبوا وقوعَ تلك الشّرور إلى صالحٍ عليه السلام والمؤمنينَ به.

التّوهُّماتُ المتراكمةُ سببٌ للضّلال المستبين

سرُّ تقديمِ ﴿بِكَ﴾ على قوله: ﴿وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾:

قدَّموا ما يتعلّق به عليه السلام فقالوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ على ما يتعلَّق بأتباعه فقالوا: ﴿وَبِمَن مَّعَكَ ۚ﴾؛ لأنه هو الدّاعي، وهو الأصل، وهم له تَبَعٌ، كما دلَّ التقديمُ على أنَّ تشاؤمَهم به مقدّمٌ على أتباعه، لأنَّه مصدرُ تلك الآفات والشّرور، وأنَّ دعوته كانت السببَ في تحول الأتباعِ إليه، وأشاروا إلى ذلك بالصّلة ﴿مَّعَكَ ۚ﴾ على علّةِ التشاؤم بهم، فهو المتبوعُ وهم التابعون له، ومن حقِّ المتبوع أن يتقدَّم على التابعينَ.

صاحبُ الدّعوة أسّ التّشاؤمِ عندهم

سرُّ التعبير بالموصول (من):

آثروا التعبيرَ بالاسم الموصول (مَن) دون (الذين) في قولهم:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 263.

﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ للامتهان للأتباع كما امتهنوا نبيَّهم من خلال توجيهِ الخطاب إليه دون اسمِه مثلًا، وهذا الامتهان والاحتقار في الخطاب ينبئُ عن حالة الاختصام الشديد، ويُظْهِر أنَّ الشؤم كان من ممتهنين ومحتقرينَ، فذلك أدعى للاستخفاف وأقوى في الخصومة وأعنفُ في الردِّ.

الاحتقارُ والامتهانُ عنوانُ خصومةِ أهلِ الباطل

سرُّ التعبيرِ بالمعيَّة في قوله: ﴿وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

التعبير بـ(المعيَّة) أدلُّ على تمامِ الاقتداء والاتّباعِ حدَّ الالتصاقِ والمصاحَبة؛ فكأنَّ المعيَّة تعني عدمَ الانفكاك، وهو ما يعني أنَّهم قصدوا أتباعَه المخلصينَ الملازمينَ له، وفي تأشير المعيَّة على أنَّها متعلَّق الصِّلة إشارةٌ إلى أنَّ علّةَ الشُّؤم في الأتباع أنهم اختاروا معيَّتك، فيرجعُ الشؤم كلُّه إلى صالحٍ عليه السلام.

تعليلُ الأحكام من ضرورات الكلام

دلالةُ كاف الخطاب في قوله: ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾:

دلَّ توجيهُ الكلام له عليه السلام بـ(كاف الخطاب) على الامتهان للمخاطبين، وعلى أنَّ قومه كانوا يواجهون لطفَه معهم بقسوةِ الخطاب، وأنهم لم يورّوا في اتّهامهم له بأنَّه وأتباعَه سببا شُؤمهم، حيث لم يتحدَّثوا بذلك في غَيبتِه بل في حضوره، بما يشعرُ بضراوةِ عداوتهم له، وإغلاظِهم له ولأتباعِه في القول والخصومة، وعدمِ اعتبارهم بمقامِه فيهم.

مقابلةُ تلطفه بالخطاب بـ(يا قوم) بقاسي الخطابِ وعنيفِه

سرُّ فصلِ قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبله:

فُصلت جملة: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ عمّا قبلها على الاستئناف البياني كسائر المحاورات والمقاولات، وذلك على تقدير سؤال: فماذا قال لهم صالح عليه السلام بعد أنْ قالوا له: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾؟ فكانَ الجواب: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، فبينَ الجملتينِ على هذا شبهُ كمالِ اتّصال.

من بلاغة الانفصالِ تحقيقُ التفاعل بالسؤال

سرُّ ذكرِ قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ رَدًّا على قولهم:

تشاكلُ الكلام لتحقيق التوبيخ على الاتهام

قولُه ﷻ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ يَقتضي التوبيخ[1] على قولهم فيه وفي أتباعِه، وفي التعبير من صالح ﷺ بلفظ (الطائر) دون لفظ (التشاؤم) استعارةٌ تصريحيّةٌ للمشاكلةِ تنزُّلًا معَهم على مستوى تفكيرِهم وفهمِهم. يقولُ ابن عاشور: "واسْتُعيرَ لِما حَلَّ بِهِمُ اسْمُ (الطّائِرِ) مُشاكَلَةً لقولهم: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾، ومُخاطَبَةً لهم بما يَفْهَمونَ لِإصْلاحِ اعْتِقادِهِمْ، بقرينة قولهم: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾"[2]. وأيضًا دلّ على سوء معتقدِهم في نسبة الشرِّ إلى مخلوقات الله، فردَّ عليهم موبّخًا ومُستعملًا لفظ التطيُّر مشاكلةً لما سبق أنْ قالوه وعلى حسب ما يعتقدونَ، فقال لهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ "أي سببُكم الذي منه ينالُكم ما ينالُكم من الشرِّ عِنْدَ الله، وهو قدره سبحانه أوْ عملُكم المكتوبُ عندَه ﷻ"[3].

بلاغة الجناس الاشتقاقي:

مجاراةُ الخصم استخفافٌ به وامتهانٌ لمعتقدِه

بين قولهم: ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ وقوله ﷻ: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وهو لونٌ بديعيٌّ يُضفي جمالًا على التعبير، ويثيرُ في النفس اليقظةَ والتنبُّهَ إلى ما يقرُّره التركيب، وهو هنا ردُّ ما ادّعَوه من شؤمه ﷺ هو وأتباعُه إلى أنفسهم وما يصدرُ عنهم من أعمالٍ سيئةٍ تجلب لهم العقوباتِ الإلهيَّة، وفي التشاكل اللفظيِّ بين الكلامين استخفافٌ بمعتقدِ أهل الباطل وامتهانٌ لعقولهم التي تتشاءمُ بالناس دونَ التفكير بما وراءَ تلك المقادير من دلالاتٍ ومعانٍ وفتنةٍ لهم في الحياة.

دلالةُ التعبير بالعنديَّة في قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾:

مقاديرُ الله تجري وفقَ حكمةٍ عزيزةِ المنال

﴿عِندَ﴾ لفظٌ موضوعٌ للقرب[4]، ويستعملُ في المكان، وهي هنا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.
(4) الراغب، المفردات: (عند).

للمكانِ المجازيِّ مستعارًا لتحقُّق شأنٍ من شؤون اللّه، به يقدّرُ الخيرَ والشرَّ، وهو تصرُّفُ اللّه وقدرُه؛ لأنَّ الشيءَ المتصَّرف فيه كالمستقرّ في مكانٍ، أي: سببُ شُؤمِهم مقدّرٌ من اللّه[1]، وأُضيف ﴿عِندَ﴾ إلى اسمِ الجلالة؛ لأنَّه معبّرٌ به عن قدر اللّه وتصرُّفِه في خلقِه، وبقرينةِ مُقابلة هذه الجملة بقوله: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أفادتْ هذه الجملةُ الانحصارَ بأنَّ ما يُصيبهم من شرور وآفات هو من عند اللّه تعالى وحدَه.

دلالة التعبير بـ ﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾:

﴿بَلْ﴾ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ﴾ للإضراب، فقد أضربَ بـ ﴿بَلْ﴾ للانتقال والترقي وليس للإبطال، وهو إضرابٌ من بيان طائرهم الذي هو مبدأُ ما يَحيق بهم، إلى ذكرِ ما هو الدّاعي إليه. أي: بل أنتم قوم ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُختَبَرونَ بتعاقُبِ السّرّاء والضّرّاء[2]. وفي النصّ إشارةٌ إلى أنَّ ما ينزلُ بكم من آفاتٍ وأضرارٍ لتكذيبِكم وعنادِكم، فيُلحِق اللّه بكم الآفاتِ لتعودوا إليه مُستغفرين، لكنَّكم بدلًا من الوعي بذلك أعلنتم أنَّ هذه الشّرورَ بسبب صالحٍ وأتباعِه، فيكون هنالك ترقٍّ من مجرَّد كون تلك الآفات أقدارًا يُلحِقُها اللّه بكم إلى كونها إنذاراتٍ لكم من اللّه بالعودةِ والتوبةِ والاستغفارِ والإيمان.

الترقي في الخطاب إفحامٌ للخصمِ ببيان الأسباب

دلالةُ التعبير بالجملة الاسميَّة ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾:

أوثر التعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ للدلالة على تأكيد ثبوتِ الحكم، وهو كونهم قومًا يُفتنون ويختبرون بأعمالهم على سبيل الاستمرار، التي يُباشرونها بأنفسهم، وعليها يكونُ جزاؤُهم من اللّه تعالى في الدنيا والآخرة، فلا يسوغُ لهم أنْ يَنسبوا ما يحلُّ بهم جزاءَ عملهم إلى غيرهم؛ إذ لا مدخلَ لأحدٍ

دوامُ الافتتان على نوع بني الإنسان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281، 9/ 67.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 407، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.

فيها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

سر التعبير بـ ﴿قَوْمٌ﴾ منكّرًا:

امتهانُ الظّالمين نصحٌ للمُعتبرين

التعبيرُ بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ أمكنُ في الدلالة على وحدة قوميتهم وكثرتهم، وعلى الوشيجةِ القائمة بينه وبينهم؛ ولذلك قال ﷺ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ دونَ أن يقول: (جماعة، أو طائفة)، ونلحظُ أنَّ تعبيره بـ(القوم) منكّرًا فيه شيءٌ من الامتهان والاحتقار لهم، يُجابِهُ به امتهانَهم الذي صدرَ منهم، فما هم إلا جماعةٌ تتعرّضُ للفتنة والاختبار، وهذا المعنى يتآلفُ مع حالة الاختصامِ بينَ الفريقين، والمجادلةِ بين أهل الحقِّ وأهلِ الباطل.

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليه علَى الخبرِ:

مجابهةُ العصاة الفجّار تقريعٌ واستنكار

في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ عبَّر بضميرِ جمعِ المخاطبين، ليدلَّ على أنَّهم جميعًا مقصودونَ به لكونهم شركاءَ في خطأ اتّهامه وأتباعِه بأنّهم سببُ ما حاقَ بهم من سوء، ثمَّ أوثِرَ تقديمُ المسندِ إليه ﴿أَنتُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ الموصوف بالفتنة لتقويةِ الحكم بأنهم مفتونون. وصيغَ النعتُ فعلًا مضارعًا، فقال ﴿تُفْتَنُونَ﴾ ولم يقل: (فتنتم) لدلالةِ المضارع على تجدُّد الفتون واستمرارِه[1].

سرُّ التعبير بالفتنة مادّةً وصيغةً:

الانتباهُ إلى الفتن والابتلاءات أوجبُ المسلَّمات

الفتنة بمعنى الاختبار والامتحان والابتلاء، وإيثارُ التعبير بها دونَ غيرها من الألفاظ المقاربة لأسباب، منها:

أولًا: كونُها أعمَّ وأشملَ في الدلالة من غيرها؛ إذ إنّها تقع بالخير والشرّ، وبالمنحة والمحنة؛ لقوله تعالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281.

ثانيًا: كونُ الفتنة إنّما تدلُّ على الاختبار الشديد وليس مجرّدَ الاختبار، وعليه يكون إيثارُ التعبير بلفظ ﴿تُفْتَنُونَ﴾ دونَ (تختبرون) أي: تقعونَ في اختبارٍ شديدٍ يتميَّز به الصّابر مِن الجازع.

ثالثًا: ويمكنُ أن يرادَ بلفظ (الفتنة) هنا ما عادَ عليهم من جزاءِ أفعالهم السيّئة، كما هو معناها في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: 14]، أي: أَوقعتموها في بليّة وعذاب، وعلى هذا أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، فقد سمّى الأولادَ هاهنا فتنةً؛ اعتبارًا بما ينالُ الإنسانَ من الاختبارِ بهم[1]، والذي يبدو أنَّ الفتنة التي تعرَّض لها قومُ ثمود كانت نتيجةَ تصدّيهم لدعوة نبيِّهم، لعلَّهم يرتدعونَ عن الإنكار والتكذيب، لكنَّهم بدلًا من ذلك أحالوا سببَ الفتنة إلى نبيِّهم وأتباعه.

وأمّا عن إيثار صيغة المضارع، فللدلالة على تكرُّر وقوع الشَّدائد عليهم وتكرُّرها، جزاءً من الله تعالى لما وقعَ منهم من كفرٍ بالله، وصدٍّ عن دعوة رسولِه، وعقرِهم الناقةَ، واستعجالِهم العذابَ.

دلالةُ الخطاب في قوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ دونَ الغَيبة:

خطابُ الكافرين النّاجح بالكلام الصَّريح الواضح

إيراد المضارع بأسلوب الخطاب في الفعل ﴿تُفْتَنُونَ﴾ مراعاةً لضمير الخطاب قبلَه، أي: أوثر التعبير بتاء الخطاب في قوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ دونَ الغَيبة؛ فلم يقل: (يفتنون)؛ لأنَّ السياق سياقُ خطاب؛ حيث ورد المسندُ إليه ﴿أَنتُمْ﴾ وهو ضمير خطاب، فكان المناسبُ التعبيرَ بـ ﴿تُفْتَنُونَ﴾ لا (يفتنون). وأيضًا لكونه أدلَّ من أسلوب الغيبة على المقصود؛ لأن القوم في حالة اختصام وحوار، وهو يستدعي توجيهَ الخطاب بين الحاضرين، مع أنّه كان يُمكن

(1) الراغب، المفردات: (فتن).

التعبير بـ (يفتنون) مراعاةً للخبرِ ﴿قَوْمٌ﴾، لكنّه آثرَ التعبير بـ ﴿تُفْتَنُونَ﴾ "ترجيحًا لجانب الخطاب؛ لأنه أدلُّ من الغَيبة"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والابتلاء والاختبار:

الفتنة والابتلاءُ متقاربانِ دِلاليًّا ومـلـزومـانِ للاختبار

لاشكَّ في أنَّ المشترك الدلاليّ والتداخل المعنويَّ بين الألفاظ الثلاثة قريبٌ جدًا؛ حتى إنَّ الفتنة عندَ المفسِّرين واللُّغويّين تُفسَّر بهما[2]، قال العسكريُّ في الفرق بين (الفتنة والاختبار): إنَّ الفتنة أشدُّ الاختبارِ وأبلغُه، وأصلُه: عرضُ الذهب على النّار لتبيُّنِ صلاحِه من فساده، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: 13]، ويكونُ في الخير والشرِّ، ألا تسمعُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، وقال تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16 - 17]، فجعلَ النِّعمة فتنةً؛ لأنَّه قصدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المنعَم عليه بها، كالذّهب إذا أُريد المبالغةُ في تعرُّف حاله أُدخِل النار، واللّهُ تعالى لا يختبرُ العبد لتغييرِ حاله في الخير والشرِّ، وإنما المراد بذلك شدَّةُ التكليف[3]. وذكر الراغب أنَّ كلًا من الفتنة والبلاء يُستعملان فيما يدفعُ إليه الإنسان من شدّة ورَخاء، وهما في الشّدّة أظهرُ معنىً وأكثرُ استعمالًا، وقد قال اللّه فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35][4]، وقال الكفويّ: الابْتِلاء في الأَصْل: التَّكْليف بِالأَمر الشاقِّ من البلاء، لكنه لمّا استلزمَ الاختبارَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَن يجهل العواقبَ ظُنَّ ترادُفُهما. وقالَ بَعضهم: الابْتِلاء يكون في الخَيْر والشَّر مَعًا، يُقال في الخَيْر: أَبليتُه، وفي الشَّرّ: بلوتُهُ بلاءً[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 281، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 206.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/ 444، 3/ 565، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 486.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217.
(4) الراغب، المفردات: (فتن).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 34.

وبهذا يظهر لنا التقاربُ الدلاليُّ بين لفظي (الفتنة والابتلاء) أقوى منهما مع (الاختبار) الذي هو لازمٌ لهما، ولذلك فإنَّ القرآن الكريم يستعملُهما دونَ الاختبار، فكلٌّ من (الفتنة والابتلاء) ملزومان للاختبار.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»